تجليات الفقر في روايتي الفقراء لدوستويفسكي والنخلة والجيران لغائب طعمة فرمان

دراسة مقارنة

م. د ساجد كامل ياسين كلية الآداب / جامعة القادسية

sajed.yaseen@qu.edu.iq

الملخص

تناولت هذه الدراسة مقارنة لصور الفقر بين روايتي الفقراء لدستويفسكي والنخلة والجيران لغائب طعمة فرمان بوصفه ظاهرة اجتماعية وانسانية , يتجلى فيها البؤس المادي بالأزمة الوجودية والكرامة الانسانية في كل من المجتمع الروسي , والمجتمع العراقي أبان نهاية الحرب العالمية الثانية , قدم الكاتبان ظاهرة الفقر بأنها حالة انسانية بارزة تكشف هشاشة الانسان وزيف القيم الاجتماعية ازاءها , وان حرمان الفرد تحول الى مرآة تعكس انكساره الداخلي تجاه هذه الآفة , فالفقر رصده دستويفسكي على أنه تجربة وجودية تهز كيانه , وتختبر مقاومته لتلك الظروف الاجتماعية القاهرة , أما فرمان فركز على أثره في حياة الناس البسطاء اليومية وتحلل القيم تحت ضغط الحاجة والفاقة . واشترك الكاتبان في رؤية الفقر على أنه أداة لكشف جوهر الانسان الوجودي ازاء هذه الظاهرة , وكشفت التناقض في الفرد فهو يحمل التعاطف والرحمة من جهة والقسوة والأنانية من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية (الفقراء دوستويفسكي , النخلة والجيران غائب طعمة فرمان , التجليات , الأثر , مقارنة بين الروايتين).

Abstract

This study presents a comparative analysis of the depictions of poverty in Fyodor Dostoevsky's *The Poor Folk* and Ghāʾib Ṭuʿma Farmān's *The Palm Tree and the Neighbors* as a social and human phenomenon. In both novels, material misery reflects an existential crisis and the struggle

to preserve human dignity within Russian and Iraqi societies at the end of World War II.

Both writers portray poverty as a profound human condition that exposes the fragility of man and the falsity of social values in confronting it. The deprivation of the individual becomes a mirror that reflects his inner collapse in the face of this affliction. Dostoevsky presents poverty as an existential experience that shakes a person's being and tests his resistance to oppressive social conditions; whereas Ghāʾib Ṭuʿma Farmān focuses on its impact on the daily lives of ordinary people and on the disintegration of moral values under the pressure of need and deprivation.

Both authors share a vision of poverty as a means of revealing the existential essence of man in the face of this phenomenon, exposing the contradictions within the individual—compassion and mercy on one hand, and cruelty and selfishness on the other.

المقدمة

تناول البحث صور الفقر في روايتي الكاتبين آنفتي الذكر , وكيف سعى الكاتبان الى رسم صور هذه الظاهرة , وأثرها في سلوك الفرد والجماعة , وكما هو معلوم ان الفقر هو حالة من العوز التي تحاصر الانسان فتحيله الى فرد تنعدم لديه وسائل العيش المطلوبة , وتمنعه من تلبية حاجاته الاساسية , لذا فالفقر من المشكلات التي واجهت المجتمعات منذ القدم ، فليس غريبا ان يقوم الاديب بتصوير هذه الآفة الخطيرة ويلتقي مع غيره من الأدباء وإن اختلفت البيئات الثقافية التي يعيش فيها كلا منهما .

إن الكتابة الروائية منذ بداياتها الاولى حاولت عكس صور المجتمع ، كونها نابعة من واقعه ومعاناته وما يحيط به , فهي لم تنسلخ عنه مهما تعددت موضوعاتها , لذا كانت الروايتان تمثلان رصدا لظاهرة الفقر في المجتمعات بثقافاتها المتنوعة .

لقد تناول الكاتب الروسي الكبير " فيدور دوستويفسكي " موضوعة الفقر بطريقة تعبيرية تأخذ شكل صيغة رسائلية ،مكنته من رصد مكنونات النفس البشرية , وصراع الانسان مع نفسه , ومع الطبقة الاجتماعية التي تحيط به .

أما الكاتب العراقي "غائب طعمة فرمان" فكانت روايته النخلة والجيران رواية اجتماعية ، لكنها لا تخلو من النقد السياسي الذي يعد سببا في الخلل الذي يصيب بنية المجتمع, ويضطرها لسلوكيات مخالفة للنظام الوضعي والديني .

قسم البحث الى مبحثين :- فكان المبحث الأول - يتمحور حول تجليات الفقر في الروايتين ومظاهره الدالة على الطبقية الاجتماعية .

اما المبحث الثاني :- فكان يتجسد في آثار الفقر في الفرد والمجتمع , وما نجم عنها من سلوكيات وانحرافات عن قيم المجتمع الدينية والاخلاقية , كالجريمة , والسرقة وغيرها من الصور الاخرى ، ومن المصادفة الدالة أن الكاتبين تناولا موضوعة " الفقر" في أول رواياتهما , لتفشي هذه الظاهرة والصلة الحميمة بين الرواية ومجتمعها غير المحصور بالنخبة .

المبحث الاول : - مظاهر الفقر / الدال المكاني (المسكن)

يحمل المسكن دوالاً تؤشر على مستوى الفرد الذي يعيش فيه, لذا كان واضحاً في رواية الفقراء من نمط عيش الشخصية الرئيسة (ماكار ديفوشكين)ما يعانيه من فقر مدقع انعكس في ثنايا الرواية , لذا ستكون بداية الدراسة المقارنة بين الكاتبين في تجليات الفقر في مسكن كل من ديفوشكين والشخصيات الاخرى في رواية دستويفسكي موضوع الدراسة , وكذلك شخصية سليمة الخبازة في الجانب الآخر وشخصيات أخرى في رواية فرمان ،وما نجم منه في خضم الصراع الروائي , لننطلق منها الى المقارنة عن صور التشابه والاختلاف لدى كل منهما .

استخدم الكاتب الروسي دستويفسكي اسلوب الرسائل في بناء المتن الروائي , وذلك عن طريق تبادل الرسائل بين شخصيتي (ماكار ديفوشكين – فارينكا دوبروسلوفنا) . والتي أفضت الى شرح سلوكهما وتفاصيل دقيقة عن طريقة عيشهما .

مهد الكاتب في روايته عن الفقر الصورة التي تثير القارئ وتشد انتباهه عن مستوى عيش ذلك الفرد , والتي عكس عن طريقها عدم شعور الاخرين بالاحترام له , وشعوره بالإذلال وعدم تقدير الناس له , لأنه يرى نفسه أهون من حشرة في أعين ممن حوله , واحساسه لا فرق بينه وبين ذبابة , بل ان دخول ذبابة الى أية غرفة قد يثير الاهتمام والانتباه أكثر مما يثيرها دخول رجل فقير معدم, كحالته من الدخول الغرفة نفسها [١].

يكتب "ماكار ديفوشكين " الى "فارينكا" تلك الفتاة اليتيمة والتي يتبادل رسائله معها عن عيشه وانتقاله الى سكن وضيع ((يا فارينكا ان هذا السكن يساعدني من حيث التحكم في المصاريف ,وفي الحد من النفقات , وان أجر أبسط غرفة بهذا المأوى , الى جانب الطعام يصل الى ٣٥ روبلا , وهذا يتجاوز امكاناتي ... اذ لم أستطع أن أشرب الشاي يومياً)) (٢).

من الملاحظ ان الكاتب لجأ الى تصوير انتقالته هذه الى سكن جديد , لضعف حالته المادية ومحاولته تقليل نفقاته وحصرها الى حد بعيد , وحرمان نفسه من أشياء كثيرة كان معتادا عليها، فملأ الروائي روايته بمحتوى تقلبات الحياة اليومية للناس الصغار , الذين يعيشون على حافة متأرجحة من العيش المستقر , وهو واقع اكتشفه قبله عدد من مؤلفي القصص والمقالات اليومية وصنفته المدرسة الطبيعية كمادة أدبية مهمة وملهمة , لقد وجد أبطال القاع في المجتمع الهامشي في هذه الرواية اصواتهم وبدأوا يتحدثون عن انفسهم وحياتهم , بعد ان كانوا صامتين ,ولا يوجد صدى لأي صوت منهم (٣).

فكثير من المقاطع التي تبين حنق الشخصية الرئيسة وألمها من مكان عيشها , فيذكر في احدى رسائله للفتاة ((لو انك تتصورين في أي جحر وقعت يافرفارا ! يا لها من شقة ! كنت أعيش في وسط يغطي عليه الهدوء والصمت , مثلما يعيش الناسك الزاهد ... اما هنا فعلى العكس , ثمة ضوضاء وصراخ وجلبة لا تنتهي , وطبيعة المكان هنا ممرا طويلا ومعتما جداً وفي غاية القذارة , وعلى يمين ذلك الممر جدارٍ عالٍ)) (٤) ، أخذ الراوي يسرد ما يعيش به من مكان غير صالح للسكن ومعزول عن العالم بجدار عالٍ و وهذا تعبير عن عزلته المكانية والنفسية .

فكان عيشه في سكن هو (دون المستوى) كما عبر عنه مصطلح يراه " بيرجل" هو من الناحية النظرية يعبر عن المنازل التي بنيت ولم يتم تحديثها وفقا لمتطلبات الحياة الضرورية , لأنها خلت من التسهيلات الصحية الحديثة , ونظام التدفئة , ودورات المياه الصحية والكهرباء وغيرها من المقومات الأساسية للعيش المطلوب(٥) .

ومن آثار المكان على سلوك الفرد ونفسيته تجلى في رسالة (ماكار) الى الفتاة واصفاً بؤس المكان وقذارته وكل ما يصل به الى مسكنه ((السلم الموضوع للخدمة لولبي الشكل وتستبد به الرطوبة والقذارة , ودرجاته مهشمة ,وجدرانه مشبعة بالدهان , الى حد ان المرء حين يستند الى تلك الجدران , سرعان ما تلتصق يده بالدهان , وبين السلالم السابقة واللاحقة ستجدين بعض الصناديق المكسرة والكراسي والخزانات المهشمة , والخرق التي تسد فجوات الأبواب من

الأسفل , والنوافذ التي تكسر زجاجها , وجميع أنواع الزبالة والقذارة , وقشور البيض , وأحشاء السمك , وروائح كريهة للغاية...الذي يمكث بيننا ستشعرين بان رائحة النتانة ستزول لأنها ستنفذ اليك , وستكون كريهة , وهي التي ستنفذ الى ملابسك ويديك , والى كامل جسمك حينها لا تعودي تشمين أي شيء)) [٦] ، هذه الصورة التي بينت واستجلت حالة السكن الذي يحيط بالفقير المعني هي تعبير عن حالة عامة لطبقة هامشية من المجتمع الذي يقبع في هذه الحيز الذي لا يصلح للعيش الطبيعي .

في الجانب الآخر من موضوع رصد الفقر في رواية فرمان تتكئ على نصوص من طبيعة عيش فئة الفقراء والمهمشين الذين لا يأبه بهم احد ولا لطبيعة عيشهم وسلوكهم , فكانت المنازل في الحي الشعبي الذي كان هو الفضاء المكاني لطبيعة العمل الروائي كانت غير صالحة ولا يمكن ان تكون بيئة عيش لفرد أو أسرة أو طبقة معينة لأنها تعيش في مستنقع الصفائح والمياه الآسنة والجدران الآيلة للسقوط , وحتى مستوى الجريمة كان نابعا من هذا المأوى .

فالرواية تكاد تجعل القارئ يرى تجسيد ملامحها الواقعية في تلك المنطقة , ولا يبتعد عن واقعية المكان وسلوكيات أفراده عن حقيقة كائنة في حياة المناطق الشعبية آنذاك ، إذ يصف الكاتب مكان " سليمة الخبازة " في الحي الشعبي ومنزلها الذي تحيطه الصفائح في المنازل المجاورة , وأماكن الخيل والحمير وفضلاتها ((كانت طولة أحمد أغا مسترخية , في شمس شهر آب ,قطعة مستطيلة من الارض , مسورة بصفائح متآكلة بلون الحناء ,مثقبة بثقوب مجهولة الاصل , وفي الداخل كانت المعالف تحت سقيفة خربة واطئة ,تشترك مع سليمة الخبازة في جدار واحد)) [٧] .

ومن اسلوب عيش افراد الحي تتضح صور وهويات أفراد الأسر التي تقطن هذا الفضاء , فيصف علاقة الانسان بالحيوان وانكفائه على نفسه , وتعامله معه ((وطوق حمادي العربنجي رقبة الحصان , وناغاه هلو باباتي ولم يلتفت الحصان اليه , ونخر نخرة قوية في وجه حمادي , وشم العربنجي رائحة التبن الترابية , وارتاح لها , ولكنه حس بقدميه التين غسلهما قبل دقائق , تغوصان في الروث)) [٨] ، ولم يكتف الكاتب برسم ملامح سكن وعيش هذا الطبقة وافرادها على اختلاف مهنهم ,بل شرع نحو اثر البيئة عليهم ومعاناتهم امام قسوتها , ليصف مشهد خروج زوجة شخصية العربنجي حمادي وصراخها وصياحها وهي تولول في مواجه الجو الممطر قائلة -:

((- راح نغرك

- اجه الشط للبيت
- - لك راح نغرك
- على كيفج يواش
- لك اش على كيفي ؟ ... راح نغرك اكول لك)) (٩)

فالصورة التي ذهب اليها كل من دستويفسكي وفرمان في رسم بيئة الفقراء تكاد تكون متشابهة من ناحية السكن والظروف القاسية لهم في تأمين مكان ملائم يواجه تلك الظروف العصيبة .

ومن الملاحظ ان مجتمعات المناطق الفقيرة تعاني من مشكلات اجتماعية , وصحية وتعليمية بالغة الصعوبة , وسكانها تحت خط الفقر حيث تزداد فيها كثير من المشاكل التي تسبب خللا في النظام الاجتماعي كالقتل والسرقة والنصب والاحتيال والاغتصاب والفساد والبغاء وغيرها من الجرائم الاخرى , لأنها بيئة جاذبة تسمح بهذه الظواهر بالنمو والانتشار ،أن الفقر ليس مجرد نقص في المال , بل هو مشكلة منهجية تحرم الانسان من فرص عديدة , وتؤدي الى تدهور جودة الحياة , وتحد من مستقبله , وتجعله تحت طائلة الانحراف بيسر لجهله بكثير من مقومات المدنية والقانون.

لذا في رواية النخلة والجيران رصد كاتبها معظم هذه الظواهر التي تجلت بسبب من الفقر الاجتماعي والذي ((يقصد به عدم المساواة الاجتماعية , والمركز الذي يحتله ويأخذه الفقير يكون وفقا للمعايير والقيم الغالبة والسائدة في المجتمع)) (١٠) .

دال المظهر / الملبس

من اللافت للنظر أن الملبس يحيل الى مستوى الفرد المعاشي في غالب الاحيان , ويبين المكانة التي يحتلها الفرد في المجتمع , فنرى ان الروايتين عرضتا الشخصيات الروائية بشكل جلي بملابس رثة تحيل الى فقر تلك الفئة , لتبين مدى الفقر الذي تقبع تحته تلك الشخصيات , بل الطبقة بأكملها . فنرى في رواية فقراء دوستويفسكي وصفا لملبس امرأة ، وشقتها فيقول ((اما ربة البيت فهي امرأة مسنة قصيرة جدا وقذرة للغاية ...وهي لاترتدي سوى الخف , ولا ترتدي غير ثيابها المنزلية)) (١١)

فالكاتب هنا تطرق الى ما ترتديه شخصياته ليشير الى بؤس وحرمان هؤلاء الافراد والى الحياة الشاقة التي تعانيها هذه الفئة بواقعية بارزة , وأثر المجتمع في واقعها المرير((لأن الواقعية الهادفة تتحقق بكل تعبير فني عن الواقع الاجتماعي يستهدف تثبيت ما فيه من قيم اصيلة صالحة , وتعميق ما اخذت فيه أو تصبو اليه الجماعة أو الانسانية من قيم منشودة وتغيير ما في المجتمع من قيم فاسدة , وأوضاع سيئة , ومفهومات مضللة)) [١٢].

كشفت الرسائل بين شخصيتي الرواية الرئيستين (ماكار ديفوشكين – و فارفارا الكسيفنا) التي وصف بها ملبسه وهيئته وشكله الوضيع الذي يبين احتقار الناس له ((حذائي رقيق للغاية يا عزيزتي , ولا يوجد به أزرار ... ماذا لو لوحظ أحد من الادارة مثل هذا الفحش ؟ أنها كارثة !))[١٣] . ويستطرد في وصف سوء حالته وفقره ومهانته بين الآخرين , واصفاً موقفاً مذلا له ((وهنا يا عزيزتي , حدث مثل هذا الشيء الذي يجعلني حتى الآن لا استطيع أن أمسك قلمي من الخجل . لقد انكسر زري – الى الجحيم به – الزر الذي كان معلقا بخيطي – فجأة وارتد . وبدأ يقفز ,لابد أنني لمسته بالصدفة , ورن وتدحرج . ثم استقام , مستقيما جداً ملعوناً , الى قدمي صاحب السعادة , وكل هذا وسط صمت عام ...هرعت للامساك بالزر...انحنيت وأردت أن أمسك الزر ولكنه تدحرج ودار حول نفسه , ولم أستطع الامساك به)) [١٤].

ولتوضيح ذلك لابد من الاشارة الى الصورة المأساوية التي رسمها الكاتب واحالت الفرد الى شخص ذليل محتقر نتيجة خلل في مستواه المعاشي المعدم , والتي من خلالها لاحقت عيناه سقوط زر الرداء بطريقة دقيقة وواعية ، لأنه بحاجة ماسه له بوصفه مكملا لكساء بدنه الرقيق ومقاومته شدة البرد , بأزرار ملابسه , لكنه عندما سقط سقطت معه كرامته وأخذ يبحث عنه تحت الأقدام فهذا يوضح مدى ضحالة هذه الشخصية الفقيرة في قرارة نفسه وفي أعين الآخرين من استصغار ,حتى انه غير متأكد من لمس الزر أم لا وهذا يبين مدى فقدانه الاحساس بما يفعل بصورة واضحة لشعوره بالنقص والدونية .

يرى الباحث أن رمزية التدحرج في تلك الظروف تمثل سقوطه من علٍ وتجسيد للوهن الذي ألم به , وبداية لمرحلة الانهيار الكامل الذي أوصله أياه الفقر , باحثاً عن استرداد كرامته من بين أقدام صاحب السعادة كما يسميه , وهذه الخطوة حقت انقلابا في حياة ماكار الى الأفضل وتغيرت نحو الخلاص من الفقر والاتجاه الى الاستقرار المعيشي بعد منحه المساعدة بمبلغ مالي جيد , وتوسيع دائرة عمله وتكليفه بأعمال تدر عليه مبالغ جيدة .

ويستمر الكاتب برصد معاناة وألم الفقير (ديفوشكين) ، ويتوغل في وصف صورة الفقر بشكل جلي , بوصف الهيئة جزءا مهما من شخصية الانسان ودلالته على المكانة الاجتماعية , يقول ((اضطررت في هذا البرد القارص بدون معطف وبدون حذاء , سأتحمل وأتحمل كل شيء , فهو ليس شيئا بالنسبة لي...ولكن ماذا سيقول الناس ؟ الأحذية ضرورية بالنسبة لي لدعم شرفي وسمعتي الطيبة , ففي الحذاء المثقوب فقد كلاهما ...انهم يطردونني ... يحتقرونني , يسخرون مني)) (١٥).

هذه الصورة التي رسمها دستويفسكي لشعور الفقير باحتقار نفسه , وسخرية الآخرين منه هي صورة مرتبطة بوعي الفقير وهيمنة الذل على سلوكه , ووعيه وكل علاقته الاجتماعية ونظرة المجتمع بشكل عام للشخص المعدم , ومن صور احتقاره لنفسه بسبب الفقر ((انني شعرت بكيفية لا ارادية باني كائن تافه وحقير ولا قيمة له مما لنعل حذائه من قيمة ...أدنى من أي كائن , وأني لمجرد شيء مخجل , ووقح وسفيه , وغير جدير - الى حد ما – بالوجود)) (١٦) . ربط الفقير حياته بما يمتلك فهو أخذ يهزأ حتى بوجوده لشعوره بالتفاهة .

فالفقر الاجتماعي ظاهرة سائدة في مختلف المجتمعات , ويقصد بها عدم المساواة الاجتماعية والمركز الذي يحتله ويأخذه الفقير يكون وفقا للمعايير والقيم الغالبة والسائدة في المجتمع (١٧).

ويظهر الفقر معززا بثقافة المجتمع والمبادئ التي يقوم عليها من عدم المساواة بين افراد المجتمع , اذ ينعكس الواقع الاجتماعي لأحياء الفقراء على نوع المساكن .وكذلك على هيئة الفرد، فالشائع في موضوع الرواية هو شخصيات حاصرها الفقر وهد كيانها واشعرها انها غير جديرة بالوجود ككائن بشري , وهذه الصورة تعرض الجانب النفسي الذي تحياه هذه العينة من الناس , فيذكر الكاتب شخصية أخرى اسمها غورشكوف الذي كان موظفا ((هو رب اسرة مستخدم فقد منصبه وتمت أقالته لأسباب مجهولة منذ سبع سنين , قصير شعره أبيض , ويرتدي لباسا شديد البلى والقذارة , الى حد أن الناظر اليه لا ينفك أن يتألم لمنظره , وهيئته كائن شديد الوهن والبؤس ترتجف ركبتاه ورأسه ... تتكون عائلته من زوجة وثلاثة أبناء البكر طفل ويبدو انه مسقام كذلك , أما الزوجة فيبدو عليها انها كانت امرأة في السابق...وتلبس الاسمال البائسة)) (١٨).

يوجه النص أعلاه نقدا للجانب السياسي إذ يفقد الرجل عمله لأسباب غير قانونية جعلت منه فريسة للفقر ,كل ذلك بسبب نظام سياسي غير عادل وليس لديه القدرة على توفير عيش كريم،

هذه صورة مطابقة لفقراء آخرين في مجمل الرواية ولكنها أكثر بؤسا لأن الفقر سحق أسرة كاملة , وهناك وصف أثره على الفرد , فرصد الكاتب لطبقة مهمة في الوجود البشري يبين أثر الواقع في العمل الروائي, لذا يرى لوكاتش ((أن الاقتصار على الوصف الأمين " لمقطع من الواقع " يصدر كذلك بصورة ضرورية تاريخيا عن العجز من استيعاب الواقع فكريا وأدبيا ككل متحرك , ولكن كل مقطع يتحتم على الدوام أن يكون أكثر عرضية وأفقر وأقسى وأكثر تصلبا وسذاجة من الواقع المطابق له)) (١٩).

لقد أشار الناقد بيلنسكي الى ((أن الكاتب دستويفسكي لا يكتفي بتصوير مصير الحياة والواقع المرير, والحرمان الاجتماعي الذي يعيشه الفقير , بل يسعى جاهدا لاكتشاف شخصية عظيمة في الانسان البسيط – انسان قادر على التصرف بنبل , والتفكير والشعور بنبل رغم فقره واذلاله الاجتماعي , وهذه مساهمة من الكاتب في تطوير فكرة الانسان البسيط , وما تحويه نفسه من خير)) (٢٠).

إن المشاهد التي تناولها الكاتب كانت معبرة عن ظاهرة الفقر بشكل دقيق ،متطرقا الى تفاصيل تعبر عن سعة خيال الكاتب , ومزجه لواقع معاش ،وعندما يتم تناول صورة الملبس الذي رصده الروائي غائب فرمان نلمس أنه يعبر عن الطبقة الهامشية في الاحياء الشعبية في فترة زمنية ما , وهي على امتداد زمني حتى في الحاضر يحتل حيزا كبيرا من هاجس الفرد العراقي بصفته موضوع الرواية , فيصف هيئة سليمة الخبازة على لسان ابن زوجها الذي يسكن معها , مرددا مع نفسه ((الليلة جمعة ...الليلة لازم الخنفسانة تنام من وكت , وفكر فيها , صدك خنفسانة , لما توكف على التنور بثوبها الاسود المكرفع الواصل لجعب رجلها . ويديها بجواريب سودة , خنفسانة عينا . العيون منتفخة , والوجه وارم , يله عاد خنفسانة نامي ! نام عليج الشف واللحاف)) (٢١) .

وصف الكاتب هذه الشخصية كونها رمزا للشخصية النسوية حينذاك وما تعانيه من حصار وهيمنة لمجتمع ذكوري , يقوم بإلغاء اي دور لها أو صوت في المتجمع فهي مجرد آلة تعمل لتوفير ما تؤمر به ((لذا ان المرأة وفق المنظومة العربية الشائعة هي أسيرة تشريط مزمن تدفعها لتلعب دور الراضخ المقهور , أو دور الاداة , وهي تطمئن لهذا الدور , وقد اعدت له نفسيا , ولكنه لم يعد يرضيها على مستوى الوعي بكيانها والوعي بحقوقها)) (٢٢) وهذا جسده الكاتب في مواطن سنتطرق لها في ثيمة مناسبة معها .

عكست رواية " النخلة والجيران " صورة كفاح الانسان وصراعه من أجل الحصول على لقمة العيش وبمشقة عالية , عرض هذه الصورة من خلال أثر الاحتلال في السلوك الانساني حينذاك , وكيف سخر الكثير من أبناء المجتمع في خدمته لغرض الحصول على رغيف الخبز . فكانت الرواية نموذجا من صراع الفرد مع الفرد , والفرد مع الجماعة صراع طبقي مقيت , سبب تفككا أسريا ومعاناة وتشكيكا بالعلاقة الانسانية التي تسير وفق منظومة الاسرة العراقية , التي عرفت بالتلاحم الأسري والعيش المشترك وبثقة عالية , فعرضت الرواية كيفية تحول الفرد الى عنصر محترف في اللصوصية والنصب والاحتيال , ففي حوار "سليمة الخبازة" مع ابن زوجها الشاب حسين تسأله عن مبلغ ، متهمة أياه بسرقته ((حسين وين الفلوس التي تاخذها فرد عليها : دوري جيب البنطلون اذا عندي

– دوري وين ما تدورين .

-هيجي ؟ يعني آني بالموت لما احصل الطحين من التموين , وبعدين اشوف ايدي والكاع ؟ ... أشو يومية اشتغل مثل المكينة والناس ماكلة افادي , خبز أسود , خبز أسود ...وكل يوم أشوف نص الفلوس طايرة ؟ حسين مو حرام عليك ؟[٢٣]

فهنا عرض لمشكلة صعوبة الحصول على لقمة العيش و ومعاناة الخبازة مع الفتى ومع الاخرين , بسبب عدم الرضا عن نوع الخبز وقلته , ففي مقطع اخر تشتكي احدى الفتيات عن صعوبة الحصول على مادة الطحين , فتقول : ((شراح اكول لأمي ؟ اوف خالة سليمة لو تدرين شلون حصلت الطحين جان بجيتي علي , طلعت من غبشة , والضوايات بعدها ممطفاية ...ولمن دخلت شفت الناس نايمين بالكاع , بايتين من البارحة ...واتكسرت عظامي لمن حصلت جارك طحين)) [٢٤]

ركزت هذه المقاطع التي سردها الكاتب على تجليات الفقر في هذه الطبقة الشعبية , ومعاناتها للحصول على لقمة العيش بما يسد رمق الجوع اليومي , كانت الرواية بمجملها تعكس شخصياتها بما يتناسب واثر هذه الظاهرة في الفرد فكانت شخصياته تتضور جوعا وبؤسا وتعاني من الفقر بوجوهه المتنوعة ,فكانت عائلة حمادي العربنجي تتلوع من شدة الجوع , وهي صورة من رؤية الكاتب عن موضوع الفقر ((حملت الماعون وخرجت من اليوان , فرأت ابنتها منبطحة على الارض – نزول عليج " راح يروح الأكل عنج " كانت الطفلة تشهق ...لتروحين

تتوجعين مثل أبوج ،اكعدي أكلي)) [٢٥]،هنا نظرة عن أثر الجوع الذي هد كيان العائلة باسرها فأخذت الام تحذر الطفلة من ان يكون مصيرها كابيها التي يتلوى ويتألم من فرط الجوع .

اتجهت زوجة حمادي الى ان تحلم بشيء من الخيال يسهم في حل مشكلتها مع الجوع والمرض , فأحالت مخيلتها الى مجيء فارس الفرسان ليسألها عما تريد و فتقول له :((عيني شتريد ؟ يرد علي منو محتاج عدكم ؟ اكول له احنا عدنا عيني الشايب صار له شهر نايم بالفراش)) [٢٦] .

من الواضح ان الكاتب لجأ الى هذه المحاكاة بين الخيال والواقع حرصا منه على عرض فكرته بان الناس اخذ اليأس منها الى تحقيق بعض أحلامها , فأخذت تلجأ الى الخيال وتلوذ به لتتمنى تحقيق مما فقد منها في الواقع , وهذه رؤيته باستحالة ان يكون هناك حلا يلوح في الأفق يحمي هؤلاء مما يعانون منه .

تتحرك شخصيات الرواية على مسرح الفقر الكلي , وارتكز موضوعها بشكل جلي للكشف عن معنى الفقر الكلي واثره في النفس البشرية , مما يجعل هذه الرواية تصنف من نوع الروايات الواقعية بشكل واضح ((هو ادراكها العميق لمعنى التاريخ الحقيقي , الذي لا يقرأ من ظواهر الاشياء , او في ثنايا الارادة الطيبة , بل في مستوى تطور العلاقات الاجتماعية , الذي يصوغ البشر فكرا وارادة وسلوكا)) [٢٧] ، لذا يبدو ان الأدب الواقعي يقترب من جوهر الواقعية الحقة الذي حدده لوكاتش ووصفه ((بأنه الضمأ العظيم للصدق عند الكاتب , النضال بلا هوادة من اجل الحقيقة او بتعبير يستخدم الالفاظ الاخلاقية : اخلاص الكاتب وامانته ونزاهته)) [٢٨] ، وفي ضوء ذلك نلمس ان الرواية الواقعية تهدف الى تصوير الواقع تصويراً صادقاً ممزوجاً بخيال الكاتب الذي يمليه على العمل الادبي , ليجعل منه مؤثرا في ذهن متلقيه ، وفي الوقت نفسه ساخطا على واقعه داعيا للتمرد عليه .

أما عندما ننتقل الى رصد دوستويفسكي للفقراء في الرواية, نود الاشارة الى ان من انعكاسات تلك الفكرة التي رسمها لهم نجد صداها في تلك المقاطع التي أوردها الكاتب بعمق على لسان ماكار مخاطبا فارينكا ((ويعلم الكل يافارينكا بأن الانسان الفقير أقبح من خرقة بالية , وانه لا يمكن ان يتمتع باي اعتبار مهما كتب عنه ما كتب !)) [٢٩]فالكاتب اورد لشخصياته التي طحنها الفقر بحوار انغمست به اللوعة بشكل مائز ((آه للفقر الذي يحكم على الناس بالنزول الى الدرك الاسفل من المذلة والخضوع ! سألت غورشكوف عن حاله فقال : أرفق بحالي ياولي نعمتي ,

وكن في عوني , يا سيد ماكار الكسيفتش , اعن اسرة يطحنها البؤس والشقاء , ان زوجتي وابنائي لا يجدون ما يأكلونه , وهذا امر فظيع بالنسبة الى اب تقع عليه مسؤولية اعانة اسرته) (٣٠) .

ولتوظيف صورة الفقر بشكل اكثر ايلاما ما ذكره الفقير ديفوشكين عما سمعه في منزل غورشكوف ((وقد لاحظت ذات مساء ... حدوث شيء غريب سمعت في المنزل بدل الصمت المعهود صوت انتحاب تلاه بعدها همس , ثم انتحاب آخر , وقد بدا لي ان أحدا ما كان يبكي , دون أن يسمع له صوت , وكانت هذه المعاناة الصامتة مؤلمة جدا , وحادة الى درجة شعرت ينشق)) (٣١) ،يقول الناقد شيفيريف عن أعمال دستويفسكي : انها تتسم بطابع خيري واضح وتعكس واقع في المأساة الانسانية . (٣٢)

إن حياة الفقراء كما يفهمها الكاتب هي تجل معقد لمبادئ متباينة بل ومتناقضة تماما , الفقر المادي يقابله الغنى الروحي , والحرمان الشديد يقابله الكرم غير المسبوق والسخاء للطرف الاخر , وبروز المشاعر السامية , هذا الفهم للجدلية المعقدة والمتناقضة للحياة الاجتماعية والمشاعر الانسانية التي تجلت في رواية الفقراء .

المبحث الثاني / اثر الفقر في السلوك البشري في الروايتين (الفقراء – النخلة والجيران)

يتناول هذا المبحث الاثر الذي يخلفه الفقر في الحياة البشرية وطبيعة السلوك الذي رصده الكاتبان تبعا لمخلفات الفقر في الفرد والمجتمع , لذا سأتطرق الى ظاهرة القهر والقتل والنصب والاحتيال وغيرها من والسلوكيات الاخرى المخالفة لما هو مطلوب في النظام الاجتماعي الصحيح .

لقد سعت الدراسة للوقوف على هذا الاثر في رواية الفقراء ورصدت كيف تحولت رسائل ماكار ديفوشكين الى فارينكا من علاقة الحب التي غمرها بهدايا ومساعدات لأنها تعيش في حالة بؤس وعلى هامش مساعداته البسيطة التي فاقت قدرته على الاستمرار بالعطاء , ومقاومة فقره وارتفاع ديونه بحيث لم يستطع السداد والاقتراض كذلك , وتبين ان الحب الذي خلقه خياله هو سبيله الوحيد للبقاء في هذا العالم وعدم التلاشي والبقاء والاختفاء من دورة الوجود , لكن الوهم تحطم , والفرح تحول الى مشكلة , لأنه كان منفصلا جدا عن الحياة الحقيقية . وبدت علاقة ماكار بالفتاة بوصفها قريبته وهي ليست مجرد شخص محبوب بالنسبة له , بل هي احد افراد عائلته من بعيد , مبررا حماسته لها وعنايته بها في رسائله ((لقد الهمتني العاطفة الابوية النقية

الوحيدة , فارفارا الكسيفنا ،لأني اتخذ مكان ابيك , بسبب يتمك المرير ,اقول هذا من قلبي)) [٣٣] .نشأت قرابة روحية خيالية , بناءً على تركيز البطل على نفسه فقط ,مجازياً ,لأنه يريد الدخول الى عائلة فارينكا : وهو لا يلبي طلبها بالذهاب الى قبر والدتها في أصعب اللحظات و لشعورها بغيابها بشكل حادٍ ومؤلمٍ [٣٤].

كانت العلاقات العائلية التي ذكرها الكاتب في الرواية ضرورية للتعبير عن فكرة الترابط الشامل بين الناس في العالم , والرحمة والتعاطف كأساس لوجود العالم ,مكانا في روحه للتوا طؤ الانساني البسيط , " ماكار" اهدر المال لشراء الحلوى , والعنب والقمصان , لكنه لم يجد مكانا في روحه للتواطؤ الانساني البسيط , وهذه الطريقة التي عرض عن طريقها دوستويفسكي فكرة ان الانسان يستطيع محاربة " الشر العالمي " من خلال التعاطف والمساعدة الضرورية حقا للشخص الذي يقف بجانبه ...ففي الرواية نوع من التعيين الرمزي لقدرة الشخص على القرابة الروحية , اي القدرة على الارتباط بشخص آخر روحيا [٣٥] ، فأحداث الرواية دارت حول شخصيتي (ماكار- فارفارا) يتبادلان الرسائل كوسيلة للتعبير عن همومهما وفقرهما والضغوط الاجتماعية القاسية التي واجهتهما , ويجد كل منهما في هذا التبادل الرسائلي نوعا من السلوى والطمأنينة والتنفيس عن الكرب .

كان ماكار رجلا مسنا يعمل كناسخ في احدى الوظائف الحكومية , ويتميز بطبيعته الطيبة والبسيطة والبائسة , ويمتلك قلبا متسامحا يرى فيه " فارفارا" صديقة وابنة , ويسعى بصدق لمساعدتها دائما , ويضحي بكل ما يملك من اجل اسعادها , رغم ان ما لديه لا يكفي لتلبية حاجاته اصلا , ولذلك ضحى كثيرا من اجلها وقد يكون دافعه وراء تضحيته هو الوحدة التي يشعر بها , وقد وجد في الفتاة رفيقا دافئا له , فيقول : ((كنت مجرد كائن وحيد يا ملاكي الصغير , يعيش عزلته بشكل وحيد , وكأنه في سبات ابدي , كنت حقا لا اعيش بالمرة , كان اعدائي يزعمون ان مظهري الخارجي غير لائق و فظلوا يهينونني , الى ان انتبهت انا الى نفسي الى ازدراء ذاتي و كانوا يدعون انني غبي , لكن ما ان ظهرتِ انتِ في حياتي حتى غمرت هذه الحياة القاتمة بضوء وهاج , وعثرت نفسي اخيرا على طمأنينتها الداخلية و فصرت ادرك انني لست اقل من الاخرين قدرا)) [٣٦] .

إن شخصية ماكار تعيش صراعا داخليا لشعورها بقلة قدرها لفقرها الشديد حتى شعرت بانها مهانة وذليلة , ونتيجة هذه الاهانات التي تعرضت لها , تحاول تعزيز قيمتها الذاتية ربما

من خلال التحلي بالأخلاق الحميدة والمساعدة والتضحية[٣٧]،نجد صداه في رسالته لفارينكا ((ويعلم الكل يا فارينكا بان الانسان الفقير اقبح من خرقة بالية , وانه لا يمكن ان يتمتع باي اعتبار)) [٣٨] .

أما في النخلة والجيران فقد كان دور الاسرة غير فعال لمواجهة مخلفات الفقر بل كان مساهما في تعزيزه ,وخالفت الدور التربوي للأسرة السوية والمحافظة على النظام الاجتماعي ((الذي هو مجموعة من الأنظمة الفرعية التي يعيد كل منها انتاج بنية الكلية الشاملة , من حيث هي جزء يمثل الكل , فان الأسرة تعتبر نظاماً فرعياً ينظر اليها كنموذج مصغر للمجتمع القومي بمقدار ما تؤدي وظيفتها ...ويمكننا ان نميز داخل الاسرة " كما هي في المجتمع " دائرة سياسية – سلطة الأبوين)) [٣٩], إذ عملت اسرة الفتاة " تماضر " على عرض الزواج القسري عليها من رجل كبير طاعن في السن بناءً على مصالح شخصية , ولا يأبه الابوان برغبات تلكك الفتاة ورفضها ذلك الزواج , لان والديها فقيران معدمان , فالأب كان فقير وصاحب دكان متواضع لا يستطيع من خلاله توفير العيش لتلك الاسرة الفقيرة , وتروي الفتاة تلك الصورة ((وفي المساء عندما عاد من دكانه , وقال لها : تروحين للعمارة حتى لو شدياج من ايديج ورجليج , ش تريدين احسن منه ؟ صايم مصلي , وحوشين بالعمارة , وتجارة , وابوج كظه عمره نزل , ولو ماهو جا آني من زمان عزلت الدكان و أشو الدنيا قحط وكل شيء أكو ...انتِ ش تريدين ؟ مو ولي ؟ يا حولي يقبلج ؟ وانتِ بت عطار تنكاته كلها فارغة)) [٤٠] .

من الجدير بالذكر أن هذا الحوار كان يعكس حديث الابوين والدور السلبي الذي قاما به ، فلم يراعوا رغبات الفتاة فاضطرت الى الهروب من المدينة باتجاه بغداد لتتعرض للاستغلال والمتعة , هربت من وسطها الى وسط اخر غريب حتى في مخيلتها , بسبب عادات وتقاليد الاهل ومن ضغط الفقر الذي دعاهم الى هذا السلوك المشين , فدوره كان لمحو كينونتها وطمس لذاتها وامالها , ورغباتها , بإرغامها على هذا الزواج القسري لغرض توفير العيش البسيط , فدور الاسرة ادى الى انحدار القيم الاخلاقية للفتاة التي كانت تمني النفس باستمرار العيش في كنف الاسرة وزوج الاحلام الذي ترغب فيه .معبرة عنه تماضر بالقول ((الاهل يريدون صخول مو بنات حتى شوكت ميريدون يذبحوها)) [٤١]

استنادا الى ما سبق يمكن الاشارة الى ان الرواية العراقية ارتبطت بالواقع ولم تنسلخ عنه , باختلاف مراحلها , واجيالها , فهي كثيرا ما ارتبطت بالبيئة والواقع الذي صدرت عنه , لذا

كانت هذه الصور ميدانا خصبا لدراسة تاريخ وثقافة وعادات المجتمع العراقي ابان تلك الحقبة المهمة من تاريخ العراق .

كان لقاء الفتاة تماضر الاول بالشاب " حسين" في باب احدى محطات ابواب سينا في بغداد , استخدم الكاتب اسلوب الاسترجاع ((ففكر حسين بلقائه الاول معها على باب سينما الرافدين , وفكرت هي بالشط ... جذبها نحوه متلذذا بلينها وطواعيتها , ودفء نهديها على صدره , لم تشعر بما شعرت به يوم امس عندما نام معها)) [٤٢]من ضغط الفقر الذي احاط بالفتاة وارغامها للزواج من رجل كبير بالسن تملكها رعب من اسرتها بعد هربها الى بغداد تصفه بقولها : ((رعب لحكني , ميجوزون مني الا يقتلوني ..جالسة ذليلة ممتقعة الوجه تبدو مقطوعة الصلة الا به من دون خلق الله)) [٤٣], وتروي للخالة نشمية المرأة التي اوتها بعد الهرب((خالة نشمية يريدون يزوجوني لواحد يبيع دهن ودبس بالعمارة – وصدكتي ؟ يمكن النهار كله حافي , ورجليه مفطرة و والعمارة وين صايرة ؟ الاهل يكذبون . ماكو واحد يغلبهم بالكذب لما يرديون يكسرون ركبة البنية ,الاعور يسوون عينه مثل الساعة ,والشايب ابن العشرين ,والركاع قندرجي)) [٤٤] . في المجتمع العربي ((توضع المرأة دوما في المكانة الاكثر اجحافا وقهرا وتنكرا لكيانها , ذلك هو السبيل الوحيد اما الرجل المقهور والمستغل كي يكون , فان قهر المرأة على هذا المستوى هو دفاع الرجل ضد القهر الذي يصبه على التسلط ...وتستغل المرأة الى الحد الاقصى ,طاعة ,خضوع للزواج ,تحديد للرغبات والارادة ,اداة للانجاب وغيرها , مما يستنزف طاقتها بسرعة)) [٤٥].

كان القهر الذي مارسه الفقر على أسرة الفتاة تماضر وراء هروبها , وحيادها الى طريق منافٍ للعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي , لذا أصبح الفقر دافعاً كبيراً لمشاكل اجتماعية أخرى تؤثر في بنية المجتمع وما يتعرض له جراء هزة الفقر العنيفة .

إن الفقر الاجتماعي الذي يفرض على الافراد وخاصة المرأة ,يتناسب مع درجة القهر التي يتعرض لها الرجل في المجتمع , لذلك الامر ليس مطلقا غبنا ورضوخا يقابلهما مجرد سيادة وتسلط ,وكلما كان الرجل اكثر غبنا في مكانته الاجتماعية مارس قهرا اكبر على المرأة وخاصة بما يتعلق بشخصية المرأة الكادحة التي يكون جسدها اداة لتنفيذ رغبات معينة)) [٤٦]

ومن ناحية العلاقات الاسرية في رواية الفقراء نجد شخصية الاب بكروفسكي والاضطرابات العائلية التي دمرت عائلته واخذت العلاقات تنقلب رأسا على عقب ، فنجد الأبن يعلم والده على

السلوك ولا يحترمه على الاطلاق ، فالأب خجول لأنه جاهل ومتواضع أمام ابنه المتعلم ،الذي ينفق كل أمواله على شراء الكتب ويعطي القليل لوالده ،بينما الأب يعيش في حالة فقر شديد ، فنجد أن الأب يقوم بدور الابوة ، ففي عشية عيد ميلاد ابنه سمح الاب العجوز لفارينكا بان تتبرع معه لشراء هدية عيد ميلاده فاتفقوا على شراء اعمال بوشكين ،وهذا يعني ان فارينكا انفقت الأموال ليس على الهدية بقدر ما هو إقامة علاقات دافئة بين الأب والأبن ، ففي الرواية نجد نوعا من التعيين الرمزي لقدرة الشخص على القرابة الروحية أي القدرة على الاقتراب بشخص آخر وهو ما تم بين الأب والأبن وفارينكا جراء الهدية .

مارس الفقر هنا هيمنته على النص السردي ففي العلاقات الاسرية للفتاة بلغ مبلغا قاسيا ' فبعد وفاة الاب انتقلت الفتاة مع امها الى منزل احدى قريباتها تدعى انا فيدوروفنا للسكن معها لفقرها فتقول عنها أنها امرأة شريرة ، ولم تكن الفترة التي قضيناها الا عذاب أليم ،كنا دوما تحت ملاماتها ولم تكن تتوقف ابدا عن تذكيرنا بأياديها البيضاء علينا ، وحين نتحلق حول المائدة تتنبع بعينيها كل قطعة نتناولها ، وان توقفنا عن الأكل تصبح تلك حكاية أخرى ، الا تجدان هذا طيبا ، وكانت كل لحظة وحين تكيل لأبي الشتائم ، لقد حول زوجته وابنته الى متسولتين ، فلا تشعرنا بالإهانة فحسب وإنما بالتقزز والاشمئزاز(٤٧) .

وينقل الكاتب حالة وفاة الشاب بتروفسكي فيقول : (أغلق التابوت ودقت فوقه المسامير وتم حمله على عربة تسير به الزم الحوذي بان يجري خببا فركض العجوز خلف العربة ينتحب الأب وكان انتحابه يمتزج باللهاث ، وفي خضم ذلك السباق وقعت من العجوز المسكين القبعة فلم يتوقف لالتقاطها بلل المطر رأسه وهبت رياح قارصة سرعان ما حولت الأمطار الى حبات جليدية ظل يركض خلف العربة دون اكتراث وهو لا يكف عن الانتحاب ، ظلت جنبات معطفه المتهرئ تتحرك وهي تتطاير في الهواء وكأنهما جناحان كبيران(٤٨).

لقد سلط الكاتب الضوء على جنازة الشاب الفقير التي ذهب بها الحوذي بشكل منفرد بين فارينكا والاب والمتسولة ، فعلاقة الفتاة فارينكا مع ديفوشكين مبنية على رسائل مبادلة من الحب والود بينهما ، والتي من خلالها قاومت الزواج المغري بشدة من بيكوف لكن الملاحظ بمرور الوقت ان الحاجة أبدلتها باستبدال احتجاجها الخارجي بالتواضع والخضوع والموافقة على الزواج من رجل تكرهه والذهاب للعيش معه رغم علمها بحاجته لها على ان تلد له وريثا ولا تشعر باتجاهه باي عاطفة(٤٩).

إن انعكاسات تلك الفكرة التي طرحها الكاتب في الرواية لشخصيات ماكار مع فارينكا وبكروفسكي مع والده والسيدة انا فيدوروفنا تبين ان دوستويفسكي لم يكن مهتما فقط بالبيئة الاجتماعية والتفاصيل اليومية التي تكشف عن حياة محرومة ماديا بل ايضا بما كان مخفيا وراءها من الدراما الروحية للإنسان الفقير والانسان بشكل عام وتصوير المأساة الداخلية للفقراء وهذا ما ظهر في معظم احداث الرواية .

شبه السيد باختين اكتشاف دوستويفسكي بثورة كوبرنكس حيث كان الوعي الذاتي محور هذه الثورة كعامل فني مهيمن في بناء صورة البطل ، فقدم دوستويفسكي مفهوما جديدا للشخصية ولم يكتف بتصوير شخصيات ابطاله ولم يظهر فقط سلوكهم النفسي بل كشف عن وعيهم الذاتي(٥٠) ، اما الناقدة بناييفا فترى في مذكراتها ان صورة ماكار ديفوشكين تفترق شيئا ما عن صورة فارينكا دوبروسيليفا ،لأن في الرواية تعطي البطلة وتعرف بجوهر روحي معين فهي ثابتة في مواقفها وليست بطلة جامدة , وماكار ديفوشكين فهو صغير , هادئ ,متواضع , مظلوم ومهان , يتحول – ويتحول روحيا , انها عملية تدريجية يلعب فيها الادب دورا محوريا , ويتحول بفضل الادب الذي يبدعه ديفوشكين بنفسه , أمام القارئ , ويتحول الناسخ البسيط الى كاتب بل كاتب حقيقي , حيث يصبح تأليف " الرسائل الودية " التي يتبادلها مع فارينكا بالنسبة له في نهاية المطاف حاجة روحية حيوية للبطل , الذي يتعرف من خلال الكلمة على نفسه والعالم(٥١) .

يلاحظ ان اسلوبه يتطور ,ويكتسب في الكلمة قدرة ابداعية مطلقة على ما يقال ويخفى . ويمكن تشبيه عالم ماكار الروحي بكون يتمدد بسرعة , فهو ليس محدود في نموه الفكري , ولا في روحانيته , ولا في انسانيته , ان امكانيات شخصيته لا حدود لها , يحدث التحول في شخصية البطل رغم ماضيه , ونشأته , واصله , وبيئته ورغم ما عاناه من اذلال اجتماعي وحرمان ثقافي , لم يبدأ ماكار بالشعور والتفكير كأفضل ما يكون فحسب , بل انه يدرك ما يمنح ويكشف له وحده , وهذا بالطبع أحد مبادئ الانثروبولوجيا المسيحية(٥٢) .

ومن الواضح ان الكاتب اتجه الى الموضوعات المحببة في معظم كتاباته , فهو في تصويره لحياة الفقراء ينحو منحى جديدا , فهو لا يهتم بتصوير اللوحات المعيشية و التي تعكس الفقر والتناقضات الاجتماعية , التي تحكم وجود الفقراء قدر اهتمامه بتصوير العالم الروحي والاخلاقي للفقراء،لقد أنشا الكاتب نصاً روائياً مشكلاً من صورٍ واخيلةٍ عالماً سديميا لرحلة الانسان وسط الفقر الذي نهش كيانه , وعبث بوجوده , وجرده من كثير مما كان يأمله ويتمنى حيازته ففشل , فسبب آلاماً قاهرةً .وحواجز نفسية كبيرة مع الآخرين .

وفي الجانب الآخر في رواية "النخلة والجيران" نجد أن تأثير الفقر بدا واضحاً في سلوكيات أفرادها , ففي محاولة " مصطفى" الذي جاء الى "سليمة الخبازة " بصفته ناصحا لأنه صديق زوجها المتوفى , والتي كانت تعيش في دار تحيطها اسطبلات الخيل وحظائر الحمير , وغرق المنطقة بالمياه الاسنة والاطيان والصفائح التي تحيط باهلها , عاشت هذه المرأة حياة قاسية في سبيل الحصول على لقمة العيش من بيع ارغفة الخبز للآخرين , فتنهض باكرا لإيقاد تنورها لتبيع الخبز لتعيش منه هي وابن زوجها الشاب " حسين" ، فقام مصطفى بعد ان زارها معرفا نفسه أياها بعلاقته بزوجها "عليوي " بطرح فكرة توسيع مدخولاتها المالية عن طريق شراء فرن للصمون الكهربائي ,لأنه من متطلبات العصر على حد زعمه ,فأخذ منها مبلغ ٣٠ دينارا وذهب الى منطقة اخرى يقطن فيها شخص اخر لعقد صفقة الشراكة الخادعة , وتقدم لخطبتها بعد ذلك مستغلا وحدتها وحرمانها من وضعها الاجتماعي الطبيعي , , فكان زواجه مبنيا على مصلحة شخصية , مع هذه المرأة التي تعيش بين الالم والامل للخروج من وضعها القاسي , كانت كالنخلة القميئة التي توجد في فناء دارها ((كانت النخلة قميئة وعاقر... يمر الصيف والشتاء دون ان تحمل طلعا أو تخضر سعفة)) [٥٣] فهي رمزا للحياة الميتة التي لا تفارق سليمة الخبازة , بالرغم من انها تقوم بتفعيل الحياة من بيع الخبز الذي تقوم بتحضيره يوميا ليعتاش عليه سكنة المحلة , الا انها بلا حياة , ففقرها وعيشها وترملها فرض عليها هذا اللون من الحياة البائسة , أما الجيران فهم عبارة عن مجموعة عوائل تضطرب فيها غرف الخان , وتنم عن حياة متنوعة تموج بالحركة والاضطراب , برغم انها هي " الصافن " الذي يعني ثباته , وهذا الحضور السائد في الرواية [٥٤].

ان الروائي عكس علاقة الفرد بالفرد من خلال ارتماء مصطفى على " سليمة الخبازة" قائما بالنصب والغش عليها , ليركن الى فكرة الزواج مختبأ خلف لباس التدين ليحصل على عطفها ويستميلها وفعلا وافقت على زواجه لأنه اراد العيش مما تدخره وتقوم به من بيع رغيف الخبز ,فليس غرضه من هذه العلاقة الانسانية المقدسة تحقيق الزواج الفعلي الذي يبنى على المودة وتحقيق الاستقرار بقدر ما كان هربا من واقع بائس كان يعيش في كنفه , مجسدا ذلك بقوله : ((اطلع وتشوفني سكران , وتضيع كل اللوزينة ؟ وتذب غراضي بالدرب ,لا ماراح اطلع اليوم)) [٥٥]. وهذه الشخصية التي تعيش على فتات الاخرين حاول التقرب من الانكليز باعتبارها فرصة للعيش الأفضل وعاد يقول لنفسه : ((هالدورة هم تفلت ؟ ..هالدورة اعضها بسنوني , هالدورة اريد اطلع حك الرفسة والتسليبة ..وكل سنين القهر ..بس عاد بيزي قهر , صار لي

عشرين سنة ادك وكل شي ما محصل , لابيت , لامرية , لافلس جوا المخدة .. والدنيا مال فلوس صدك الماعنده فلس ما يسوى فلس)) [٥٦] .

يرصد الكاتب بيئة الفقر بوصفها مكانا لتشكل الجريمة ومحطة لظهورها بشكل واضح , فيرى في قتل شخصية " صاحب ابو البايسكلات " من محمود ابن الحولة لمجرد طلب منه ان ينزل له بايسكل فامتنع صاحب ((ما قبل صاحب...كام محمود ابن الحولة صعد للدكان يريد ينزل البايسكل بيده , منعه صاحب ودفعه , وتدافعوا وهذاك جر السجينة وضربه)) [٥٧] .

ففي هذه الصورة عرض الكاتب ما خلف الفقر في نفوس الافراد فيتقاتلون على اتفه الاسباب وغير آبهين بالقانون واصبح هناك تمادي واضح على حقوق الاخرين بشيوع شريعة الغاب وحكم القوي في تللك البؤرة الفقيرة هناك , وهذا مؤشر على تصاعد عمليات القهر وارتكاب جرائم متعددة في المناطق الشعبية الفقيرة , لان الكاتب وفقا للمؤشرات التي ذكرها في حوار شخصياته عن موضوعات الفقر المتعددة استطاع م خلالها ان يوفر قدرا واسعا من الصدق الفني , ليترك اثرا في نفس قارئها , وعلى ما يبدو ان الكاتب كان حريصا على هذا الصدق باختياره اللغة العامية في حواره الروائي والذي مكنه من قدرته على اجادته في طبيعة موضوعه الذي اراد معالجته .

لذا ((ان الأحداث التي تشكل الحبكة في الرواية أحداث تشاكل الواقع الموضوع , ولكنها لا تطابقه , فهي تنقاد بخيوط خفية , لتنتهي بنهاية غير اعتباطية , ولتقدم وجهة نظر , أو رؤية أو معنى)) [٥٨] , كانت صورة الفوضى الاجتماعية وغياب القانون في المجتمع ولدت الرغبة في مقاومة الجريمة بجريمة اخرى وشيوع المقاومة بالمثل تحت مسمى الثأر والاقتصاص من الجاني , فاخذ الشاب حسين يفكر في كيفية الانتقام من " ابن الحولة " لقتله صاحب ولإهانته سابقا في المقهى ووصفه اياه بالمخنث ,فشعر بعقدة النقص وفقدان القوة ((لأن عقد النقص تجعل الخوف يتحكم في الانسان المقهور , الخوف من السلطة , الخوف من قوى الطبيعة , الخوف من فقدان القدرة على المجابهة , الخوف من شرور الاخرين)) [٥٩] .

كان الشاب "حسين " يتربص به , ويحضر لقتله , فرسم الكاتب ما يدور في ذهنية الشاب وكيفية السيطرة على الاخرين والانتقام من خلال التسلط بالضرب والطعن , والترويع بالسكين وغيره ,اسوة بابن الحولة , لأنه يرى ((الدنيا تايهه , والا جم واحد قتل محمود ابن الحولة ؟

صابر وصاحب وناس كثيرين ... لان الناس ستحترمه وتخاف منه , ويفكر بالعيش كسلطان , وجم واحد السجينة توكله لكمته وأكثر ؟)) (٦٠)

تحول خوف حسين الى انفجار في داخله للانتقام من القاتل ابن الحولة ,فاستطاع التمرد واشترى سكينا وهوى بها على جسد ضحيته واحاله حطاما وهو في حالة سكر في الفندق ((وبحركة واحدة لا تدبير فيها رفع السكين وانزله بقوة على الجسم المنكفي على الحائط في مكان ما أسفل الرقبة ...وضرب ثانية باستماتة وهوس وشراسة ...وضرب الثالثة على العنق ,وملأ الدم كفه , وجعله يضرب كالمجنون في مكان واحد من الرقبة التي بدت هشة بضرباته)) (٦١) .

هذه الصورة تجسيد للجريمة وما خلفته ظاهرة الفقر من ظهور أسبابها لتفتح بابا لتسلط القوة وشيوع فوضى الصراع الإنساني , والانتقال من طبيعة الإنسان المسالم الى انسان لا يأبه بالقتل وفيض كفه بالدم , لأن الكاتب أراد نقل صورة الفقر بوصفها عامل فرقة بين أفراد المجتمع , وشيوع آفات اجتماعية اخرى تنجم عن الفقر وأسبابه . في حين أن الكاتب الروسي أراد نقل تضامن الفقراء فيما بينهم لتجاوز الظروف المعيشية الصعبة التي واجهت شخصياته , من خلال شعور شخصية " ديفوشكين " بالفتاة " فارينكا" ومساندته أياها في أوقات الفاقة فالفقر جمع بينهما في علاقة مودة وحب وتبادل للأحاسيس والمشاعر عبر الرسائل وبروح مفعمة بالتعاون والعطف والعلاقات الانسانية الصادقة ، وكذلك موقف ديفوشكين مع غورشكوف ذلك الموظف البسيط الذي فصل من عمله ظلما , وتعرض وعائلته لجوع انهك قواهم , ومزق أحشاءهم , محدثا ديفوشكين ((انا برئ , قال لي انا برئ تماما من الاعمال المشينة , والتي نسبت لي , انا لم اقترف جناية الغش , ولا جناية الغش ولا النصب والاحتيال , لقد أساءت هذه القضية لسمعة الرجل , فقد فصل من المصلحة التي كان يعمل فيها)) (٦٢) ،فاخذ يطلب المال والمساعدة من ديفوشكين الفقير المعدم متوسلا اياه بان يساعده ((انا لا اطلب منك الشيء الكثير يا سيد ماكار...زوجتي وأبنائي يموتون من شدة الجوع , لو أقرضتني بعض القروش وحسب انقبض صدري لكلامه انقباضا رهيبا , ها هو ذا أحد هؤلاء الذين يعيشون كذلك , في وضع اشد ضيقا وبؤسا مما اعيش فيه انا)) (٦٣) .

عكست هذه الصورة النقائص الاجتماعية التي تحدث خللا في بنية المجتمع المختلفة ما ان يتعرض الانسان الموظف البسيط الى هزة بسيطة , لا يستطيع من خلالها العيش بشكل طبيعي ولا يستطيع مواجهة قسوة الحياة ومصاعبها , فرأى الكاتب ان الفقر استطاع ان يعمل المودة والرحمة بين الفقراء أنفسهم , فعلاقة الحب واجهت الفقر وزرعت المحبة والتعاون على تجاوز

محنته , ولكن من الملاحظ عندما سنحت الفرصة للفتاة لتحسين حالتها المعاشية والهروب من مستنقع الفقر سارعت بالموافقة على الزواج من رجل ثري لأجل انجاب وريث شرعي لثروته , فتنصلت عن ماكار لتبدا فصل جديد من العيش في حياة جديدة , فالفقر في الرواية كان هو اذلال اجتماعي ورمزا للقيود التي تقيد الانسان , فكانت شخصياته تدور باستمرار في فلك الفقر , ففقر فارينكا وديفوشكين ليس مجرد وضع مادي , بل عائق يحرمهما من تحقيق أحلامهما , والاختيار السعيد بحرية بحسب معطيات العلاقة التواصلية .

كان رصد الكاتب لموضوعة الفقر دقيقاً في سلوكيات شخصياته كافة فقدمت تنازلات عن كثير من مبادئها لمقاومة خطره ، فالتخلي عن الحب والكرامة الانسانية كانا جزءا منها , ولكنه لا يستطيع تغييب الجانب الانساني في التصور الفردي والفكري للإنسان للتوحد ازاءه , فموضوع الحب والتواصل الانساني ففيه لم يتكلل الحب بعلاقات فاعلة بين شخصيات الرواية المختلفة , يدعم الابطال بعضهم بعض في الظروف الصعبة , والحفاظ على قيمهم ونورهم الداخلي رغم تلك الصعوبات يهتمون ويدعمون بعضهم البعض , ويجدون في ذلك معنى لوجودهم .

وفي ضوء ما تقدم ووفقا لتلك الرؤية لم يعتبر دستويفسكي أن الطبيعة البشرية طيبة وخالية من الخطيئة , بل على العكس تحمل الرواية سياقا جدليا – خلافا مع طوباوية الاشتراكيين , وكذلك يرى ان مأساة الفقراء لا تكمن في الظروف الاجتماعية فحسب بل في انفسهم , كما ان مأساة ابطاله لا تكمن في وضعهم الاجتماعي او حرمانهم المادي , بلفي انهم لا يسمعون بعضهم بعضا . كشفت الرواية عن المأساة الداخلية للفقراء ، واهتمام الابطال ببعضهم البعض لم يحقق لهم السعادة , بل على العكس من ذلك , فقد فرقهم للابد على ما يبدو , وكشف عن انغماس البطل في " اناه " الخاصة به , واقامته في عالم وهمي من الحلم، نشأ من رغبة حادة في الشعور بعدم كفاءته الاجتماعية في المجتمع البشري وبحثه الدائم عن الطمأنينة المفقودة في الحياة الانسانية , وهذا عنصر مهم في فكرة الرواية .

الخاتمة :

كشفت المقارنة بين روايتي الكاتبين تصوير هذه الظاهرة رغم التباين الناجم عن ثقافة كليهما وآثارها على الفرد والمجتمع ، فقدمت رواية الفقراء رؤية انسانية عميقة لمعاناة الفرد والطبقة المسحوقة , وسعت لكشف الجانب الروحي والنفسي للفقر , مبررا صراع الانسان مع ذاته بين الكرامة والذل والحب واليأس ,واما الرواية العراقية رأت أن الفقر سبّب خللا في البنية

الاجتماعية واستطاع نشر الجريمة, وتناقض اخلاقيات الفرد ازاء هذه الظاهرة الخطيرة وتفشي ظواهر اجتماعية أخرى سببت انحلالا لديه , فالفقر ساهم في ظهور تصرفات منحرفة كالنصب والاحتيال , والغش , والتعاون مع المحتل والخضوع له من أجل لقمة العيش والاختباء في كنف المستعمر , فالفقر اصبح عاملا لتقييد الانسان واذلاله وعدم استقلالية قراراته.

تلتقي الروايتان في تصوير الفقر كقوة مدمرة للروح الانسانية , لكنها في الوقت نفسه تبرز الأمل بوصفه جوهر الوجود الانساني رغم المعاناة البشرية , كما تشكل الروايتان مرآتين لواقعين مختلفين يجمعهما هم انساني واحد , تبين ان كلا العملين قد نجحا في تجسيد معاناة الانسان في مواجهة الفقر, وان اختلفت السياقات الثقافية والاجتماعية لكل منهما , والراويتين تكشفان عن عمق التجربة الانسانية امام هذه الظاهرة ,وشاهد على ان الادب في جوهره كاشف عن معاناة الانسان بصرف النظر عن الزمان والمكان . وتؤكد ان الادب المقارن يسهم في ابراز القيم المشتركة بين التجارب الانسانية المختلفة ,ويرصد وحدة الهم الانساني في مواجهة المعاناة.

المصادر :

١. ازدهار الرواية الروسية في القرن التاسع عشر وصورت الشعب , سماح عادل www.kitabat.com
٢. تاريخ الادب الروسي ,مقال لوري لوتمان في نثر الاربعينيات ,مجلد ٧ , منشورات اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي –موسكو- لينيغراد ١٩٥٥ .
٣. التخلف الاجتماعي –مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور , د .مصطفى حجازي , المركز الثقافي العربي الدار البيضاء –المغرب , ط٩ , ٢٠٠٥.
٤. الحب الاخر في اعمال دوستويفسكي المبكرة , تاتيانا كاساتكينا مقال على شبكة الانترنت في ٢٠١٣ t-kasatkina.livejournal.com
٥. دراسات في الواقعية ,جورج لوكاتش , تر: د. نايف بلوز ,المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع بيروت –ط٣, ١٩٨٥ .
٦. دراسات في الواقعية الاوربية : جورج لوكاتش تر: امير اسكندر ,مراجعة د. عبد الغفار مكاوي ١٩٨٧.
٧. سوسيولوجيا الفقر الأبعاد والتجليات , مازن مرسول محمد الربيعي مجلة آداب المستنصرية - المجلد٢٠٠٩ – العدد ٤٨ .
٨. الفقر في ديوان عبد الوهاب البياتي، بروانة داشاب جامعة بوشهر ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والانسانية جامعة بابل العدد ٤١ ،كانون اول ٢٠١٨ .
٩. الفقراء :فيودور دوستويفسكي ، تر: احمد الويزي , المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ,ط١, ٢٠١٥
١٠. فقراء في حقل صحراوي : شيفيريف , مجموعة بطرسبرغ ج١.

١١. مذكرات : باناييفا افدوتيا ياكوفليفنا , موسكو م, خيال ,١٩٨٦ .
١٢. مراجعة رواية الفقراء لدوستويفسكي :مقال على شبكت الانترنت , الهام درس .shoman.org
١٣. مرايا الرواية دراسات تطبيقية في الفن الروائي ,د . عادل فريجات ظ , منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠.
١٤. مشكلات شعرية دوستويفسكي :ميخائيل باختين ,م: روسيا السوفيتية , ١٩٧٩ .
١٥. مشكلة الاحياء الفقيرة والهامشية –ظاهرة متعددة الابعاد , د. عبد الكريم علي مصطفى , جامعة عمر المختار ,٢٠١١.
١٦. النخلة والجيران : غائب طعمة فرمان ،الاعمال الكاملة –دار الفارابي , دار بابل ط١, ١٩٨٨.
١٧. النقد الاجتماعي –نحو علم اجتماع للنص الادبي , بيير زيما ,تر :عايدة لطفي ,تقديم : د. امينة رشيد وسيد البحراوي ,دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة ,ط١, ١٩٩١.
١٨. الواقعية في الأدب , عباس خضر, وزارة الثقافة والارشاد –مديرية الثقافة العامة –سلسلة الكتب الحديثة ,دار الجمهورية –بغداد ١٩٦٧ .

الهوامش

(١)ينظر : الفقراء : ٤٧ .
(٢) نفسه : ١٣.
(٣)ينظر :الحب الاخر في أعمال دوستويفسكي المبكرة مقال على شبكة الانترنت t-kasatkina.livejournal.com
(٤) الفقراء :١١.
(٥)ينظر : مشكلة الأحياء الفقيرة والهامشية ظاهرة متعددة الأبعاد : ٣.
(٦): الفقراء : ٢٦.
(٧) النخلة والجيران : ٣٧.
(٨)نفسه : ٣٩.
(٩)النخلة والجيران : ٤٠.
(١٠)سوسيولوجيا الفقر الابعاد والتجليات: ٥.
(١١)الفقراء : ١١.
(١٢): الواقعية في الادب : ٣٧.
(١٣)الفقراء : ٩٢.
(١٤)نفسه : والصفحة نفسها.
(١٥)الفقراء :٧٦.
(١٦) نفسه : ١٥٦.
(١٧)ينظر : الفقر في ديوان البياتي :٧٩٤.
(١٨)الفقراء : ٢٩.
(١٩) دراسات في الواقعية :٦٨.
(٢٠) تاريخ الادب الروسي , ٥١٩
(٢١) : النخلة والجيران :١٣٢.
(٢٢) : التخلف الاجتماعي مدخل الى سايكولوجية الانسان المقهور: ٢٠٧.
(٢٣)النخلة والجيران : ١٧.
(٢٤)النخلة والجيران : ٦٤.
(٢٥)نفسه : ١٥٤.
(٢٦)نفسه : ١٥٥.
(٢٧) مقدمة رواية النخلة والجيران : ١٢.
(٢٨) دراسات في الواقعية الاوربية : ٣٣ .وينظر : معنى الواقعية المعاصرة :٢٤ .
(٢٩) الفقراء :١٢٦.
(٣٠) نفسه :١٧٦.
(٣١) الفقراء :٢٩ .
(٣٢) ينظر : فقراء في حقل صحراوي : ١٦٣.

(٣٣) الفقراء :١٩-٢٠ .
(٣٤) ينظر : فكرة الرواية في عالم الرواية الفني :٣٤.
(٣٥) ينظر : رواية الفقراء . ٦٧ .
(٣٦) نفسه : ١٥٧.
(٣٧)ينظر : مراجعة رواية الفقراء لدستويفسكي :مقال على شبكت الانترنت , الهام درس) .
(٣٨)الفقراء :١٢٦.
(٣٩)النقد الاجتماعي نحو نقد النص :٢٠.
(٤٠) النخلة والجيران :١٠٣.
(٤١)النخلة والجيران :٨٧.
(٤٢)نفسه : ٥٢.
(٤٣)نفسه :٥٠.
(٤٤)نفسه : ٥٣.
(٤٥)التخلف الاجتماعي مدخل الى سايكولوجية الانسان المقهور : ٢٠٥.
(٤٦)التخلف الاجتماعي مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور : ٢٠٢
(٤٧)ينظر : الفقراء : ٤٤.
(٤٨) الفقراء: ٧٥ .
(٤٩) نفسه : ١٤٣
(٥٠) ينظر : مشكلات شعرية دستويفسكي :٥٦ .
(٥١) ينظر : مذكرات بانييفا :١٤٤.
(٥٢) ينظر : نفسه : ١٤٥.
(٥٣) النخلة والجيران : ٨ .
(٥٤) نفسه : ١٩٦.
(٥٥) نفسه : ١٣٣.
(٥٦) نفسه : ٩٢ .
(٥٧)النخلة والجيران:١٩٥.
(٥٨) مرايا الرواية دراسة تطبيقية في الفن الروائي : ١١ .
(٥٩) التخلف الاجتماعي : ٤٧.
(٦٠)النخلة والجيران : ٢٠٠.
(٦١)نفسه : ٢١٥.
(٦٢)الفقراء : ١٧٨.
(٦٣)الفقراء : ١٧٧.